محمود الخطيب

الارض والعرس والدم

ومضة ، أصغر من خرم الابرة ذات وجه كئيب وارتعاشات ، تنغلق كشريحة غضة مفلوعة ، تتقولب ، ترشح علقما ، تخترق الحاجب الطحلبي الآسن بطعنات مفاجئة ، تمارس الطراد بمهارة اهل قريش في مدى الفيافي .

لانها ومضة فريدة : لها ألف شكل والف جوهر ، في حياة امرأة تتلوى في أنين التاريخ مصلوبة على وعود من الشوك .. لا الامال لديها تفرخ غير البؤس .. ولا الاحلام تنشر غير العذاب .. فالجار غارق في ثوب الحداد .. والجار ينوح على أثر الخراب .. والجار يقضم اصابعه المرتعشة لهول العار ، لان التراب ترابه ولم يعفر الا عينيه .

ومضة ، كالطيف .

تتسلل من صليل معمعة الثبات بين « حصار التلال » ، تهوم حيرى بين آمال البؤس واحلام العذاب ، لتوقظ الوجوه المنكفئة في النعاس .. لتدمي جلد التمساح .. لتسقط الجمرة في الحلق المتشنج .. واحسرة الفارس النائم في القبر .. وشموا على زنديه عار ضناه العابث بأثقال القهر وكيد الهزيمة ، وصبوا في حلقه أنة علقمية .. واحسرة الرؤية عبر سواد القار .. فالفارس مات على مجده من مئات الاعوام ، واعناق الضنى صفعتها كف همجية .

الا ومضة ،

طويلة بطول سنين الصبر .. أثقلتها عناقيد المرارة .. تميد تحتها كل احزان زينب المتكدسة بين كتفيها منذ ان اغلقت البوابة في « دنّا » ودست المفتاح في زنارها ، وراحت تجرجر خطواتها المتعبة نحو الشرق ..

زينب العكبراوي : صرارة الصوان التي انطبقت عليها السماء والارض في لحظة واحدة ، فانفلقت السماء ، وانشقت الارض .. وبعدئذ ، لا زينب بقيت « زينب » ، ولا ...

نظرت راغية الحدقتين .في جبينها بصمات عتيقة من جذور السنديان . ماد رأسها من شدة الغل كجرس مقطوع لسانه ... اطلقت لهثة بطيئة متعبة : يا زينب !.. من زمان وغيوم الصيف تخدع .. والحرباء لا تعرف اللون الثابت .. والزنود المصنوعة من قصب لا تتحمل الدعك .. والاجنحة المشرعة في الفراغ منتوفة حتى اللحم .. والالسن الطويلة المتدلية كثيرة اللعاب والثرثرة ... والرجال ، لا بطول الشوارب ، ولا بلمعة « القنابيز » ،ولا بعرض « الشراويل » .. من زمان يا زينب والمثل يرن في اذنيك : « لا يحك جلدك غير ظفرك » . كفاية دجل وضحك على اللحى . لوحت برأسها كمن تهتف بموال : لا زينب بقيت زينب .. ولا سفيان بقي « سفيان » .

ـ يا ولدي ...

وشعرت بالغصة تتسلق حلقها . كلما نظرت اليه تراودها الحسرة وينبعث الامل ، فتمفط افكارها دهرا الى الوراء عندما سقط الفرح من صدرها ، والى الايام التي كان فيها سفيان صغيرا ينتقل من ذراع الى ذراع ، وهي تخب به في المنحدرات وتتعثر بالصخور ، ويكاد النهر يأخذها ، فتغرق في بكاء صامت لا نهاية له .. وينطلق السؤال :« وين رايحة يا زينب ؟ ».

كلما نظرت اليه ، تتخلخل الاحزان ، وتجد فيه الولد والوالد، العضد والسند ، الفارس الاتي في كل لحظة ، البيت ، الشمس، تراب الوطن ..

ـ يا ولدي .. صرنا مثل اهل مأرب .. بعد تفسخ السد ، تشتتنا !.

لم يرفع رأسه . ظل يشد عنق الحذاء فوق كاحله ويربط الشريط لكن الكلام الذي تدحرج في اذنيه كبقايا الجمر ظل يحترق حتى ملأ رأسه بالدخان . هوم مثل برميل مغلق على سطح دوامة فأطبق جفنيه وتنهد :

ـ وهل أراد أهل مأرب غير الماء ؟. الماء لا يصنع الوطن !.

ـ كان الماء هو الوطن عندما لم يكن للارض غزاة .

ـ فغزتهم الصواعق ، وهاجروا ، بدلا من اصلاح السد !.

ـ بماذا ؟.

ـ بماذا !. برمال الصحاري . بالتراب . بالصخور . بحبال الخيام . بالاوتاد . بظهورهم وايديهم . بأي شيء . العزيمة لا تنهار من صاعقة !.

طقطقت اصابعها ، وقالت :

ـ حكي .. وحرب الحكي سهلة .

تردد ، واحتقن وجهه . فجأة ، رفع عينيه نحوها :

ـ باطل !.

سحب ساقه الى الوراء ، وأشار الى نفسه وأومأ بعتاب :

ـ غلطان ؟! .

تنهدت امه وحاولت ان تحدد له الكلمات :

ـ افهمني يا ولدي ...

- افهميني انت .. عض الاصابع لا يجدي !.
- زعلت ؟ .. كانك ..
- كاني لا أسدي، ولا خزرجي ، ولا غساني .
- مـن ؟! .
- جماعتك ، أهل السد !.. الذين رحلوا قبل انهيار الجدار .

شهقت مندهشة ولوت اصابعهـا حول فمها .. راحت تفكـر بمعاني العبارات التي قالهـا ولدهـا باصرار . وعندمـا التقـت نظراتهـا بنظراته ورات الحدة في عينيه ، كاد كل منهمـا ان يحتضن الاخر . بعد لحظة من الصمت ، قال سفيـان :

- حكيت لي،ان ابي قتل،وهو يدك ((الجفت)) بالبارود والصتوان ونتف الزجاج فوق رابيـة وادي ((دنـّا)) ليرد الضربة بضربة .. بينمـا تمركز اليهـود على الرابيـة المقابلة ؟ .
- صحيح .. ووجدنا ((الجفت)) الى جانبه .
- عال ! . على الاقل ، حاول ان يرد الصاع الى كياله !.ورويت ان البعض هاجـر الى ((شرق الاردن)) ببنادق جديدة ، ملفوفـة بالسجاد العجمي ومحملـة على ظهور الخيل خوفا من تفتيش الهاغناه ؟.
- نعـم ..
- تفو .. هم اهل مأرب .. لو استعملوا البنادق لتغيرت الحال.
- تغيرت ؟!. هه !. يا حسرة !. كانت الطبخة مطبوخـة . جيوش كبيرة وجرارة ، رجعت وعيونهـا في الارض !.
- جيوش ؟! .. لا تقولي ! .. راحت الجيوش تسكر في حيفـا ويافا وتل ابيب ، وهمها الاول صيد اليهوديات !.
- والملوك على فراش الحرير وتحت الوسائـد مؤامرات .. يا لخسارة العمة والطربوش !.

- كانت النجدة ملغومـة والمراجل بالحكي .. خذلونا ،واخرجونا، وصار الكـل علينـا . نسيت يامه ؟ سفيان الطفل ، الذي راى الدنيا في حضن يركض الى الوراء ، وعار الهزيمة عرش في عينيه قبـل ان يعرف طعم العار ؟ .. لا عاش ساعـة فرح ولا ذاق لقمة هنية !.

نفخ من شدة الغيظ ومـد ساقه الاخرى فلبس فردة الحـذاء وانكب على ربط الشريط . وراحت امه تغرقه بنظرات فضفاضـة مشحونـة بالصمت الذي بلـغ حـد الامتلاء بالفعل . خطر على بالها: لو انه صغير ، يتمدد بيـن ذراعيهـا ، لضمته بقوة واشبعت لهفتها. ولكنهـا تراجعت وفكرت : ((كبر سفيـان يا زينب)) .

قالت بعد برهـة :

- برد الشاي يا ولدي !.

* * *

رشف رشفـة من كوبه واشعل سيكارة ثم مد ساقيه الى الامـام واسنـد ظهره الى الجدار . أطرق على ضوء السراج فشاهد ظلـه وراء كتفيه . غرق في لحظة الانتظار فامتد الصمت وبدات المخيلـة بالانفعال . في رأسه عصور كثيرة تبدأ مع بدايـة الكون مع معرفتـه بفك الخط والقراءة . ظل يقرأ ويقرأ حتى نام بين الصفحات وانطبـع مسلسل الزمان في ذهنه . عصور كثيرة لو حاول ان يعايش وقائعهـا لتـاه في المخليـة وأضنـاه السفر .. اكثر مـن الهم على القلب ..

قامت امه لتجهز له الزوادة فتناولت سلـة صغيرة وراحت تملأها وتتنهـد بيـن الفينة والاخرى . سحب سفيـان نفسا من سيجارته ونفخ الدخـان امـام عينيه .. وقد بدا في استرخائه كالقتيل المسنود على نفسه . اغلق جفنيه نصف اغلاقـة فتداخل الضوء بالليـل وضاعت تنهدات امه . نقاس اللحظـات ، كالسنـة الضوئية بالضوء .. والزمن بالزمن .. والليل بالظلام .. والرجل بالفعل .. وسفيان المسافر خلف حدقتيه ، بكل شيء .

- أالنت عتبته ؟ .
- وصلت .
- قصدتك من وراء الفيافي .
- هل اضناك السفر ؟.
- حتى حفيت وادمي كعبي.
- ويحك ! .من انت ؟.
- الخطيئـة .
- قتلتنـي !.
- قبل ان اطرح السلام ؟!
- هذه دراهمي .
- وبعد ؟.
- وعمامتي .
- . . . .
- وعباءتي .
- . . . .
- وردائـي .
- . . . .
- وحذائي .
- وبعـد ؟.
- عريتني يا خطيئة !.
- من قال لك ان تجلس على راس الكوفـة ؟!
- وماذا جنيـت ؟
- سلمت من مدحي ومن ذمي !.

ثاب الى نفسه للحظة . رشف من كوبه وسحب نفسا آخر ، ثم القى براسه الى الجدار وغاب من جديد ..

- الا تعرفني ؟.
- واه !. من تكون بمثل هذا الزي ؟.
- سفيان العكبراوي .. بعد اربعة عشر قرنا من زمانك .
- واه !. اتعرفني انت ؟.
- اسمك فوق كل الاسماء ايها الصحابي عبدالله !.
- كيف ؟.
- كنت داعية لمحمد فخذلته !.
- ويلك ايها الشيطان !.
- وقتلت لحظة فك القيد بدلا من الدفاع لحظة الحصار .. وغيرك شهر سيفه في اول اللقاء وقاتل حتى استشهد .
- وغيري مات في القيد .
- فكنت بين الدفتين .. لا مؤمنا ولا شجاعا .
- لا . كنا نسوس لننشر الدعوة .
- حتى في ذلك الزمان ؟!.
- وقطعنا الفلاة الى الكفرة.
- وعرفتم انهم كفرة ؟.
- أعمانا طراد الخيل والفرسان ، قلنا : نقع في الاسر الـى ان يحين الفرج .
- ثم ندمت على ما فعلت ؟
- كانوا اكثر يقظة .
- فضلت الحياة على الموت ، والنجاة على الايمان .
- واه !. أتعيرني وانت لم تفطم بعد ؟!.
- ما رضعت لكي افطم .. جف الثدي يوم ولدت .
- من الصعب ان تفهم !.
- آه .. وما اصعب ان تفهم !.
- اتدري ؟. احيانا يساورني العار على ما فعلت .. واحيانا اخرى اجد في الامر شيئا من الحكمة . لكن النهاية كانت واحدة وهذا مـا يثير قلقي !.
- أتعذر نفسك ام تجد في العذر ؟ . ما زلت تتارجح ؟. يا لك من منافق !.

ـ ليتك في مثل عمري !.

ـ ليتني لا اصل ذلك اليوم اذا كانت النهاية بهذا الشكل . يا عبدالله ؟. عندما وقع الاختيار لزمت القرار السهل ، ولما صحوت فتلت بين الشجاعة والخوف فوصمت بالجبن ليس غير .. بعدك ، جاء الاباء .. هم اكلوا ونحن ضرسنا !.. الزمن ينسخ نفسه !.

ـ كفى .. افعلت كل هذا ؟!.

ـ ماذا ؟!. لقد نمت على عارك اكثر منك . كانني انا الذي لم اشهر سيفي !.

ـ ها ، ها ، ها .. وياتي احفادك لكي يقارعوك يا عبدالله !!.

ـ لان الزمن لم يتغير .. لم يتغير !.

ـ والله ، لو معي سيف لطعنتك !.

ـ دائما ، تاتيك الشجاعة متاخرة !.

ـ قل يا فتى ؟. هل بلغ الخبر ذلك المدى ؟.

ـ لك احفاد ينسخون التاريخ وينامون فيه !.

ـ وحفظتم عاري ؟.

ـ من يجرؤ وقد مهرت بمحمد ؟!.

ـ وما معنى ان تكون جوادا بريا بين الخيول الاليفة ؟.

ـ رغبة !. شذوذ !. منطق !. جنون !. قهر !. حصاد عمر من المذلة !. خذها كما تشتهي . لكن آه ، لو تقع بين يدي لشلعت خصيتيك !.

قالت زينب ببرود :

ـ سفيان ؟. لا تنم يا ولدي !.

أجاب بارتباك :

ـ نعم ؟.

ـ جهزت الزوادة .

نظر الى السلة . سأل بدهشة :

ـ أحمل كل هذا ؟!.

ردت بعتاب :

ـ العين بصيرة واليد قصيرة .

سمع سفيان صوتا ينادي ، فلف كوفيته حول عنقه ومدها على صدره بشكل متقاطع ثم عقدها خلف ظهره . نهض بسرعة ، تناول السلة، وبحث عن سلاحه فرآه الى جانب امه . قال قبل ان ينطلق :

ـ يامه .. ناوليني « أبو العز » ؟.

وقبّلها .

* * *

ـ مساء الخير .

ومشى مع يوسف الذي كان يحمل كيسا صغيرا من القماش . تساءل :

ـ تأخرت !.

ـ لا عليك . لن يذهبوا بدوننا .

ثم تنحنح بخبث واضاف :

ـ فهمك كفاية !. كانت « الخطيبة » في البيت .. والعين لا تشبع !.

ـ سعديه ؟.

ـ ومن غير سعديه ؟!.

ـ سخر سفيان :

ـ لهطة ؟!.

ـ واكثر ..

ولكزه بطرف كتفه فالتفت سفيان واستطاع ان يرى عبر الظلام حركة تومض من عينيه .

ـ فرصة !. اقضي فيها الساعات الحلوة لانسى التعب والهم . العمر مرهون بالحظ ، مثل ورقة القرعة !. والواحد منا ، حامل دمه على كفه ، ولا يعرف ، هل يعود من المشوار او لا . الموت ناظر عثرة ، وانت اخبر ، وجه وقفا مثل السندويش !. اسكت !. كيّفت !.خطفت بوسة بسرعة البرق !. طعمها على شفتي . استحت سعدية وسكتت .. ولا كلمة !. واذا اعترضت انت ، هي اعترضت !.

قرصه سفيان فصاح متوجعا وأكمل :

ـ ظل خدها ينقف طوال السهرة ، وقلبي ينقف معه . أخطب ؟. تكاثر يا أخي ؟!. صارت الكثرة بركة !.

ـ صحيح ؟!.

ـ والدنيا بخير ..

ـ عفارم !.

ـ والقشة لا تزيد البيدر .

ـ تزيده قشة !.

ـ يا شيخ !!. من متى تخطط بالمسطرة والقلم ؟. بعد خراب البصره ؟!.

ـ وهل رأينا غير الخراب ؟.

ـ على الاقل يبقى من يقتفي اثرك . ومن يعبر الدرب لا توقفه العثرات . يجب ان يمشي !.

ـ فيتكاثر اليتم ؟.

ـ من يشعل النار ، لا يحصي الحطب .

ـ صرت تفهم يا ولد !.

ـ اخص !. الدنيا تعلم الحجر !.

ـ معك حق .

ـ نصيحة . ابحث عن بنت الحلال واستر نفسك .

ـ بدون بحث . البنات اكثر من عدس « الوكالة » وأرخص من التبن . وما ان تشعر البنت بهمس الزواج حتى ترمي بنفسها لكي ترفع الهم عن اهلها . مظلومة !. مظلومة من ايام قريش !.

واطرق قليلا فساد صمت كصمت الانتظار مليء بالتوقعات . واخذ يفكر ، فاستعرض منيرة التي طرقت الباب في الصباح ودخلت تحمل بيدها ثلاث بيضات . كانت خجلة ومضطربة تلف رأسها بمنديل ابيض :

ـ يا خالتي زينب ؟. امي تسلم وتبعث بالميسور للضيف .

ـ أهل خير وبنت حلال .. أقعدي يا منيرة ؟

ـ مستعجلة .

والقت نظرة الى سفيان واستدارت . قالت امه :

ـ سلمي ؟.

ـ واصل .

واضافت قبل ان تخرج :

ـ بالهنا والعافية .

وراحت مخيلة سفيان تستعيد الموقف ومشاعره تتهيأ له ، وظل غارقا في زخم الافكار فترة من الوقت الى ان اخرجه يوسف من صمته:

ـ ساكت ؟!.

ـ افكر ..

ـ بماذا ؟.

ـ بالذي يشعل النار ولا يحصي الحطب .

ـ ٢ ـ

افرغ قهره بانفاس محمومة ، كان يلفظها من وقت لاخر ، وبقي صدره مكتظا . اخرج علبة فضية اللون يطرزها الصدأ ولف لفافة ثم اشعلها . كانت الشمس تحتضن جانب وجهه الايسر فاستدار حتى واجهها واتكأ على اكياس الرمل فاختفى ظله وراءه . ثنى ساقيه فانطلقت الركبتان الى اعلى وطوقهما بذراعيه وقبض بكف على ساعد اليد

الاخرى فاحس بحرارة القبضة وبقيت اللفافة محشورة بين اصبعين شاردتين . نظر صوب الشمس بعينين حادتين كعيني الصقر ليحاور الوهج وسرح في دنياه اللاهبة : سفيان بن مصطفى حسن العكبراوي .. لا اصغر ولا اكبر .. من « دنّا » المبطوحة في حضن السهل وعلى مرمى الحجر من بيسان .. باع ابوه العمر بحشوة « دك » ليحمي الزرع والتراب وبيت الطين ، وترك خلفه أرملة صبية وسفيان الطفل ، زوادة لبلاد الغربة والعجايب .. ايه !.. راحت السنين وطالت الغربة ، لا اخذنا حق الضيف ولا عرفنا وجوه « المعازيب » .. وذقنا المر ، والامر ، واشتدت علينا المصايب . يا وهج !. عهد . انا وانت ، معا ، الى قاع جهنم ، او نرجع الى « دنا » .

فك يديه ومص اللفافة بعصبية . التفت الى رفيقه فوجده يحدق اليه وعلى شفتيه ابتسامة حائرة . تذكر « يوسف » والضحكة الدائمة والمرح الذي لا يختفي .. كانه طالع من الحلم او عائد اليه .. شعر بالغصة والحنين معا .. واسترجع الحوار الطويل الذي دار بينهما عن الخطيبة ، البوسه ، التكاثر ، العمر المرهون بالحظ ، والموت . فاشتاق لكلماته وللتحاور معه . مرة ، قال له يوسف :

ـ ما الفرق ان نموت الان او بعد حين ؟.

فاجاب :

ـ لولا الامانة لكان الموت افضل .

ـ اذن ، هي الامانة ؟.

ـ العروق شرشت .

ـ من ينظر الينا ينكر علينا آباءنا !.

ـ ومن ينظر الى آبائنا ينكر ابناءهم .. تنعموا بالعز ولفظوه في اول جولة .

ـ لحسوا « التنكة » من الصوبين . ها ، ها . لا . لحسوها من اولها لآخرها !.

ـ ارانب !. تركوا الميدان لحميدان !.

ـ حميدان مظلوم . كان في الميدان ابو طربوش وابو الطبيخ .

ـ شهاب الدين ! ...

ـ ها ، ها ، ها .. هون عليك ؟.. الماضي انتهى .

ـ يظل المطعون ينظر الى اثر الطعنة ويتذكرها .

ـ بسيطة .. اسكت .. خذ سيكارة ؟.

ـ لا .

ـ نفخ يا رجل ؟!.. حامل السلم بالعرض !.. قل لي ؟.. متى تتزوج ؟.

لولا القهر الذي يملأ صدره لقهقه بالضحك من اعماقه . افاق من تاملاته فرأى رفيقه يحدق ويبتسم . بادره بالكلام محاولا الخروج من اضطرابه :

ـ ذكرتني بيوسف .. غرب من يومين ولم يعد !.

ـ الغائب عذره معه ..

ـ بالي مشغول !.

ـ سبقتني ، والكلام لي !.

ـ ماذا ؟.

ـ احوالك مفشكلة ؟!.

تردد سفيان .. ولما رأى السؤال يلح في عيني رفيقه ، ارخى رجليه وتنهد :

ـ سأروي لك حكاية : أرى في البيداء وجه رجل مخمور بلحية وعباءة . ظل يعب الخمر الى ان جاءه من قال : قتل ابوك . اجاب الرجل : اتركني اليوم ارتوي .. وغدا ابحث عن قاتل ابي .

ـ الحالة مقلوبة !!.

ـ نعم .. انما فيها الدواء لي ولك .

ـ كمن يداوي عينيه بالرماد !.

ـ او كمن يصفع الجائع برغيف ..

ـ المعنى ، اني اضايقك ؟.

ـ اعذرني .. كلما اشتد الكابوس امتلأ رأسي بردود الفعل .

ـ ولذلك طرحت السؤال !.

ـ شكرا .. ولكني متورم ، واجلس في مكان ضيق .

ونهض من مكانه .. نفض قفاه بكفيه وحيا رفيقه وانصرف . في الطريق التقى رفيقا آخر طرح عليه السلام وتابع سيره بعد ان أومأ باشارة تساؤل . رد سفيان مشيرا الى انفه :

ـ طائحة .. حل عني .

فسمع قهقهة الرجل تصدح في أذنيه .

عرج على غرفة القيادة فرأى الملازم احمد يستند الى الجدار ويقرأ في كتاب . تردد ، وبقي عند الباب الى ان تنبه الملازم فالقى الكتاب على الارض وخرج :

ـ نعم ؟.

واحتضنه بذراعه ، ومشيا معا . قال سفيان :

ـ ساتعلم السحر !.

ضحك الملازم بتلقائية هادئة وسأل مازحا :

ـ متى ؟.

ـ بعد انتهاء الحديث .

ـ اذن ، ضقت بالدنيا ، وها انت تعابثها ؟!.

ـ تماما .

ـ وهل تريد ان اجلس في الصندوق ؟!.

ـ لا .. بل تقف معي على « الخشبة » .

ـ لتخرج من انفي بيضة ؟!.

وضحك مرة اخرى ، وأكمل :

ـ لست من صنف المهنة .. اتركها لغيرك .

وسادت لحظة صمت . كان سفيان مطرقا يفكر باشياء كثيرة تتراكض في مدار واحد وبملامح واضحة ، نحو المجهول . قال الملازم بعد ان قطعا بضع خطوات :

ـ المهم ، ماذا تريد ؟.

ـ بدأت افكر بنفسي وباشياء كثيرة .

ـ مثلا ؟.

ـ أصيص فيه شجرة تفرخ ورودا كثيرة .. او سمكة تبيض لتملأ البحر .

ـ الشجرة بحاجة الى ماء !.

ـ اسقيها بلعابي .

ـ والبحر مليء بالقرش !.

ـ اذا امتلأ البحر بالذرية ، يقضم « القرش » أسنانه .

ـ تغيرت ؟!.

ـ افكر بيوسف كل لحظة .

ـ وهو السبب ؟.

ـ اسمع كلامه واضع فيه افكاري .

ـ وانا ، ما هي مهمتي ؟.

ـ دبرني باجازة .

ـ مستعجل ؟.

ـ في اقرب وقت .

ـ بعد اسبوعين ؟.

فكر سفيان قليلا :

ـ اقرب !.. اقرب !.

ـ صعب .

ـ اذن ، ساكتب اليوم رسالة ..

وافترقا . عاد الملازم الى كتابه ، وتابع سفيان مشواره الى

الغرفة مشحونا بشتى المشاعر والتخيلات . رفع بصره الى فـــوق فصادفته غيمة رمادية كبيرة وحولها غيمات صغيرة متناثرة . قـــال لنفســه :

ـ هذه غيوم آب الفارغة .

ودخل الغرفة .. تناول دفترا وقلما ، ثم جلس عند الباب وراح يكتـب .

في المساء وقف على الطريق ، واعطى الرسالة لسائق الباص ، ثم عاد وتناول عشاءه وشرب الشاي .. وظل يسهر ويدخن حتى منتصف الليـل ...

* * *

استيقظ في الفجر على ركلة عنيفة فقفز مذعورا يبحث عـــن سلاحه . الا ان يدا قوية شدته الى الوراء واحتضنه ذراعان وجلجلت ضحكة طويلة ملأت اذنيه :

ـ مجنـون ؟!.

تراخى لوقع الصوت . فتح عينيه . اطلق نفخة طويلة :

ـ يوسف ؟. كدت انسف رأسك ؟!.

ـ عال !. رجعت لاموت بين يديك ؟!.

ـ اتركني ؟. متى رجعت ؟.

ـ كما ترى !. تعب ، وغبار ، وسهر !.

وهز رأسه معاتبا :

ـ نوم الهنا !.

ـ بدون غمز . الدنيا دوارة !.

وقرفص ليطوي فراشه ، بينما خلع يوسف كوفيته وقرفص بدوره ليفك شريط الحذاء . قال سفيان :

ـ ماذا تفعل ؟.

ـ ما يفعله كل من لا تحمله قدماه !.

ـ دك البابور واعمل قهوة . أيقظتني لتنام ؟.

ـ وحضرة جنابك ؟!.

ـ سأغسل وجهي .

وبعد قليل ، حمل يوسف القهوة ووضعها على عتبة الباب . جلس بقربها والقى كتفه على حافة الجدار بينما جلس سفيان واشعـــل سيجارتين مد احداهما الى يوسف ، وصب القهوة ، ثم القى كتفـه على الحافة الاخرى . نفخ يوسف بضيق بعد ان امعن في الجو لفترة :

ـ ناشفة !. ولا قطرة ندى !.

ـ حدثني عن المشوار ؟.

ـ طفت البلاد كسندباد اعرج مطفأ العينين .

ـ اذن ، جئت باخبار لا تذكر ؟.

ـ جحور بعدد شعر الرأس . والنهار ، كمن في حلم ، طويـل لمن لا يتحرك معه . وظلام على مدار الليل ما أقصره !.

ـ خفاش صلب الجناح !.

ـ وله اسنان واظافر وفي ريق فمه سموم .

ـ وبعـد ؟.

ـ زرعنا « بطاطا » لها « مهاميز » في رأسها ، وقصبا له اذناب قطط فيها نوابض ذات اجل محتوم .. واحمل لك امانة !.

تطلع سفيان بسخرية وحرك قبضته .. عاجله يوسف بابتسامـة ماكـرة :

ـ لا امزح .. جزيل السلام من وادي « دنا » ، ووصلة سلـك شائك ، وعشا مهجورا وجدته في مغارة .

ـ قتلتني .. ما أبغضك !.

ـ وهل يكون في السخرية غير العلقم ؟.. انا وانت من طينـــة واحدة ، وجيلنا جيل زمن واحد .

ـ زمن لا يعرف الضحك .

ـ بل طلع الضحك في منبت الشقاء .

ـ وآخر الحكاية ؟.

ـ مسك الختام . فليسرد هارون الرشيد اخبار بلاطه ؟.

ـ مات الرشيد في سيرة زبيدة فترك لنا حكايا لنحفظها .. وظلت صور المواثد في الخيال لنحلم .

ـ حليب « الوكالة » اطيب .. والعدس المسوس ولا أشهى !.

واطلق ضحكة شديدة ، فيما بقي سفيان مطرقا يرشف قهوته . توقف يوسف فجأة ، وسأل :

ـ أخبارك ؟.

رفع سفيان رأسه بعد ان وضع الفنجان على العتبة وفتح علبـة التبـغ :

ـ حورية طلعت في الصحراء لها رونق العشب وجماله ، وطائـر يغرد فوق رأسها .

ـ وجد التائه اثر النبع ؟. كيف ؟.

ـ بالرغبة الراكضة الى المدى . كنت افكر بك وبنفسي .

ـ وماذا فعلت ؟.

ـ سبقتك . بعثت الى الوالدة لتطرق باب « منيره » .

بُغت يوسف واخذته المفاجأة :

ـ لا !.

ـ بشرفي . واذا سارت الامور على ما يرام ، سأتزوج بعـــد اسبوعيـن ..

ودخل الغرفة تاركا « يوسف » في حيرته .

ـ ٣ ـ

تململت زينب في الفراش كأنها تسمع طرقا في المنام .. حركت ذراعها وعادت فطوتها على صدرها وحشرت كف اليد الاخرى تحـت خدها محاولة ان تستمر في غفوتها .. كان النعاس اثقل من الزئبـق في عينيها .. الا ان الطرق عاد وتكرر فتكدرت وأزاحت الغطاء عنهـا ومشت بخطوات مترنحة نحو الباب .

صاحت قبل ان تصل :

ـ مـن ؟.

جاء الجواب خافتا خجلا ، لكنه ينبض بالفرح :

ـ منيـره .

طقت القفل وفتحت دفة الخشب فصدر عن حركتهـا صريـر كالحشرجة . القت منيرة التحيةفردت زينب وامعنت في نور الصباح وهللـت :

ـ ادخلي .. طالت النومة على غير عادة !.

ـ جئت للمساعدة يا عمة .

ـ من اصل طيب . كيف حال الوالدة ؟.

ـ بخير . سبقتها وهي قادمة .

ـ أتعبناك وأتعبناها !.

طوت الفراش . غسلت وجهها بسرعة . لفت شعرها بمنديـل وتناولت صرة صغيرة من جيب ثوب معلق . حملت سلة كبيرة وهمت بالخروج . قالت منيرة :

ـ ماذا افعل ؟.

ـ اعملي قهوة واشربي ..

ـ شربـت ..

ـ أكنسي الحصيرة .. واغسلي القدر والطنجرة .. وامـلأي « التنكة » بالماء .. وبعد رجوعي نكمل العمل معا .

وانطلقت وفي خيالها اكثر من امنية تبعث في النفـس الانشراح والبهجة .. وسفيان وحده محور كل شيء .. وكانت خطواتها النشطة

تصفق ثوبها الطويل فينتج عنها حفيف كتلاطم الاجنحة ، بينما اصابع يدها تتحسس الصرة الصغيرة بانتظام ..

التقت في الطريق بالحاجة « سعده » التي بادرتها بالكلام وطبق العجين فوق رأسها :

ـ مبارك يا زينب ..

ـ مبارك عمرك ، وبفرح الغالية البافية بعريس .

ـ وصل زين الشباب ؟.

ـ ولو !.. النهار في أوله .. حضورك ضروري يا حاجه .

تركتها وسلكت طريقا فرعيا باتجاه بيت ام منصور . ولما وصلت دقت الباب ونادت فخرجت ام منصور على الفور . فتحت زينب الصرة ومدت اليها قطعا من النقود وشددت على كلماتها :

ـ لا تنسي الزغاليل ؟.. أربعة ؟.. سآخذها في الرجعة بعد ان يكون ابو منصور قد ذبحها .

وتابعت الى دكان « أبو محسن » .. كان جالسا على كرسي صغير ويرتدي فمبازا مقلما وحزاما عريضا وكوفية بيضاء عليها « عقال » بهت سواده .. وامامه اركيلة امسك خرطومها بيد ، وبالاخرى ملقطا .. وعندما رآها تتجه اليه ، لف الخرطوم على قامة الاركيلة ووضع الملقط على الصحن ووقف :

ـ الهمة مليحة والوجه باسم . مبروك ، الف مبروك .

ـ يسعد صباحك .

ضحك ابو محسن ومازحها :

ـ زينب اليوم غير زينب الامس ؟.

ـ بدون مسخرة يا « ابو محسن » .. مستعجلة !.

ـ الاغراض جاهزة قبل طلوع الشمس .

استغربت زينب واعتراها الارتباك . تساءلت :

ـ أغـراض ؟!.

ـ نعـم .

ـ أي اغراض ؟

ـ رطل سكر .. رطل ملبس قضامه .. رطل « راحه » معطرة .. صندوق ليمون حامض .

بقيت غارقة في الارتباك والظنون تتناوشها بلا جدوى :

ـ ومن أين لك بهذه المعلومات ؟.

ضحك ابو محسن :

ـ معلومات ؟!. الاغراض ملفوفة والثمن مدفوع !.

شهقت شهقة سريعة ، وقطبت حاجبيها :

ـ عزا !. كيف ؟.

ـ سهر عندي ابو منيره ، ودفع مقدما .

ـ أبو منيره ؟!

وفركت كفيها بعصبية :

ـ وقبلت أنت ؟.

ـ الكيس واحد يا زينب !.

ـ كيف يا « أبو محسن » ؟.. العريس ابني !.

ـ والعروس ابنته !. بسطي الامور ؟..رفض الا ان يدفع !.

واخذ السلة من ذراعها ثم اختفى وراء الحاجز ، بينما هـي مستسلمة للافكار . قالت في نفسها :

ـ عيب والله !. لو عرف سفيان لطار صوابه !.

قال ابو محسن وهو يرجع بالسلة :

ـ تفضلي ؟. كل الاغراض ما عدا صندوق الحامض . سارسله فيما بعد .

ـ أريد اشياء اخرى ؟.

فترك السلة على الارض ، وتهيأ :

ـ حاضر ..

ـ باكيت قهوة .

ـ باكيت قهوة .

ـ علبة كبريت ونكاشة بابور .

ـ علبة ، ونكاشة ..

ـ قنينة كاز .

ـ قنينة كاز .

ـ فلقة صابون .

ـ ...

ـ سكر فضي .

ـ بكـم ؟.

ـ بقرشين .

ـ ...

ـ هيل ، بخمسة .

ـ هيل .. وبعد ؟.

ـ بس . ناولني السكر الفضي ؟.

فتحت الصرة ودفعت له الثمن ثم عقدتها ودستها في صدرها . أخذت كيس السكر الفضي وقرفصت فخرج ابو محسن من وراء الحاجز بعد ان حشر بقية الاغراض في السلة ووضعها فوق رأسها ...

عرجت على سليمة الطيراوية التي لم تنسها منذ ان وصلت رسالة سفيان .. سليمة المشهورة بأحسن صوت واحسن زغرودة في المخيم . دقت الباب ونادت فخرجت سليمة مرحبة :

ـ يا سليمة .. اليوم يومك !.

ـ الحق يا زينب .. الكل فرحان .

ـ خـذي ؟.

ومدت الكيس اليها .

ـ مـاذا ؟.

ـ سكر فضي . لكي يصدح الصوت والزغاريد في كل مكان .

وتابعت الى بيت ام منصور .. اخذت الزغاليل وعادت الى البيت.

* * *

غطست الزغلول في الماء الساخن لفترة وانتشلته . طاطات رأسها وراحت تنتف ريش الجناحين . استعادت ، بفيض من الحنين ، مشهدا قديما من مشاهد العمر ، طمسته السنون القاتمة فبقي منفيا ، متقوقعا ، ناجزا عن ان يميد ، ولو لمرة ، في الخبايا العميقة . ان حالة الفـرح الراهنة هي التي قفزت وراء تلك الاعوام لتطرق ابواب الذاكرة . هـا هي تتذكر يوم خطبها مصطفى العكبراوي ويوم زفت اليه وصمدت على كرسي عال في بيته طوال السهرة .. بينما ذبحت الخراف وتعالـت الاغاني والزغاريد وزخات الرصاص من كل صوب .. وتصايح الصغار وتراكضوا بين الحضور .. وعرق « الدبيكة » لكثرة ما دبكـوا ، وتساقطت كوفياتهم ، وانتفخ عازفا « المجوز » و « الشبابة » . وتتذكر كيف تانق مصطفى بعباءته عصر ذلك اليوم وركب حصانه وخرج مـع الخيالة الى الميدان ليحتفلوا بطراد الخيل الذي استمر حتى المسـاء وكيف ان ابن عم العريس اقترب من الطراد فتدحرج بين قوائم الخيل وبقي فاقد الوعي حتى الصباح التالي .

تذكرت كل ذلك في لحظة .. وتهادى سفيان الواجم من بعيد ، ينوء بشبابه المثقل بالرصاص .. ترقرقت الدموع في عينيها فاغلقت جفنيها ببطء وطارت كالريشة لتحتضن ضناها الذي لم يعد لها فـي الكون غيره .. هو الفرح عندما يبتسم .. والحزن اذا راوده الحزن .. هو الشراع الاتي للنجدة ، والامل الجامح الى « دنا » . اغرقت وجهها في صدره كأنها تغرقه في بلسم : « يا ولدي !.. عرس الخرفان وطراد الخيل غير عرس « الملبس قضامة » والدق على السطل !. نذر

ـ التتمة على الصفحة ـ ٥٠ ـ

الارض والعرس والـدم

(تابع المنشور على الصفحة ١٦)

عليّ ، واشهدوا يا اهل المخيم ، ان اجدد لسفيان العرس في بـلاد الاعراس » .. وحاولت ان تتخلص من غصة ملأت حلقها ..

فالت منيرة لامها وهي تنظر باسهاب :

ـ نامت العمة !.

فتوقفت الام عن العمل وحاولت ان تاخذ الزغلول من بين اصابعها، الا ان زينب انتفضت للمباغتة وعادت الى وضعها الطبيعي .. قالت ام منيرة :

ـ غفـوت ؟.

ـ لا .. كنت سارحة مع ايام زمان !.

ـ ايام زمان ؟. قبرناها !.

ـ كلما طفح المر ، طفح الحنين للحلو !.

ـ كلامك درر يا زينب !.

ـ ولا في اليد حيلة .. يلعن الفقر وايامه !. لو كانت الاحـوال احسن ، لكان العرس بحجم صاحبه !.

ـ الاحوال مثل بعضها .. مصطبة على مصطبة !.. لا تحزني .. الامل بسفيان وبامثاله .

ـ يدوم عمرك .

ثم تذكرت ، فجاة ، الاغراض التي دفع ثمنها ابو منيرة فقالت كانها تعاتب :

ـ تكلفتم والواجب علينا . والله ، خجلانه !.

ـ ولو !. عيب يا زينب !.

ثم تنبهت للوقت فالتفتت الى منيرة وقالت :

ـ نسيت نفسك ؟. بسرعة !. ارتفعت الشمس !.

ـ انتهى كل شيء ..

وقامت ، فغسلت يديها وصبت الماء على يدي امها ، ثم غادرتا معا . قالت زينب وهي تودعها :

ـ العرس عرسك يا منيرة !.

ـ ٤ ـ

غريب هذا الاحساس الطاريء . في فترة قصيرة ولدت افكـار وذهبت افكار وتغيرت قناعات . صار في دوامة الحلم والكابوس معا .. او بحّارا يصارع العاصفة ويترقب هدوءها ويتهيأ لما بعد الهدوء. صار سفيان ، اثنين في زمان واحد .. كعرق يابس امتد الى شرشه عـرق اخضر . صار له امراة ، فانتشر العشب برائحته ونعومته واخضراره في صدره المحروق ، واعطى اكثر من الرائحة والنعومة والاخضرار .. واصبحت منيره تنطلق باستمرار عبر رؤياه الى المستقبل .

كان يردد : انها حالة جديدة وصعبة . والمراة عندما تكون شريكا بهذا الحجم تصبح ضرورة واجب بقاؤها في الكفة المقابلة للقضيـة ويتوجب المحافظة عليها بقدر متكافيء . فاذا كنت تريد ، يا ابـن العكبراوي ، بحرا يمتلىء بالذرية ، فها هي منيرة والذرية من اجـل « دنا » . وبذلك تكون سفيان الحقيقي الذي يبلغ فعله اضعاف حجمه.

كان الوقت مساء . الشمس توارت منذ لحظات وبوادر الظـلام تزحف . وسفيان قابع في مكمنه على جانب الطريق ، يتكيء على يمينه، يفكر ، ويتحسس سلاحه الملقى على وسطه . وكان يوسف القابع الـى جانبه مادا ساقيه ، يتدلى من عنقه جهاز بحجم الكف ، سلاحه عـلى الارض ، ويمسك بيده لفافة خبز ، يقضمها ويهمدر . قال سفيـان محاولا الخروج من حالة الصمت :

ـ تكلـم ؟.

ـ كلام في وقت الطعام ؟.. الفم لا يتسع للاثنين .. تكلم انت ؟.

ـ الجعبة فارغة .

ـ هه . لسانك شبرا .

وتابع قضم اللفافة تاركا سفيان في وحدته وعلى شفتيه بـوادر ابتسامة ساخرة . وعندما انتهى فرك كفيه ببعضهما ومسح فمه وهمهم:

ـ اذن ، وقعت ؟.

ـ لا يقع الا الشاطر !. كيف ؟.

ـ كنت في آخر الصف فخرجت من اوله !.

ـ الفكرة الكاملة يجب ان لا تظل فكرة والا تحول صاحبها الـى تنبـل .

ـ فيلسوف بأفكار غير قابلة للبيع !.

ـ ولا للتجسيد ..

ـ دربكوا على السطل ؟.

ـ دربكـوا ..

ـ والزغاريد والاغاني ؟.

ـ صدحـت ..

ـ والحلويات ؟.

ـ تناثرت على الجميع ..

ـ والصمدة ؟.

ـ على برميل كاز ..

ـ وأمـك ؟.

ـ نامت في بيت اهل العروس ..

ـ اذن ، خلا لك الجو ؟.

ـ على احسن ما يرام ..

ـ ولعبت لعبة السيف والقراب ؟!.

ضحك سفيان ودفعه بقبضة يده :

ـ امر لا بد منه .

ـ وصرت تضحك ؟!. يا للعجب !. هل كانت العقدة امراة ؟!.

ـ انتقلت العدوى منك اليّ .

ـ منافق !. والله منافق !.

وهز رأسه بشيء من الاستنكار ثم عاد وسال :

ـ المهم ، والعكبراوي الصغير ؟.

ـ في اسبوعين ؟!.

ـ احيانا يتم الامر في ساعتين .

ـ اتوقع خيرا من منيره .

دب وقع رخو لحصاة صغيرة سقطت بقربهما واعقبته همسة خافتة فتاهب الاثنان ولزما الصمت لفترة قصيرة ، ثم ادار يوسف رأسه في الظلام وسال :

ـ مـاذا ؟.

اجاب صوت انطلق من موقع آخر :

ـ اضواء تتحرك من الشرق .

فالتفت الاثنان دفعة واحدة وراحا يرقبان بعدما امسكا بسلاحيهما. بدت الطريق المنبطحة على سفوح التلال الشرقية مطرزة في جزء منهـا بشريط من الاضواء لسيارات تتحرك ببطء نحو الغرب . رفع يوسـف الجهاز عن صدره وتحدث فيه ، فسمع على الاثر وقع ضجيج وصفارات وفوضى اقدام في القاعدة . قال سفيان :

ـ قافلة .

ـ او عرس لواحد من اصحاب النعم .

والمم ثلاث حصيات عن الارض وقذفها الى اتجاهات مختلفة ثـم اعقبها بصوت ثم قال لسفيان :

ـ جاء دورك .

نهض سفيان واتجه نحو الطريق . وقف على الاسفلت وراح ينتظر ويخمن بينما تصاعد هدير المحركات شيئا فشيئا . وعندما اقتربـت الاضواء رفع ذراعه اليسرى مؤشرا بالوقوف ، وبقيت مرفوعة الى ان توقفت جميع السيارات واطفئت المصابيح . تقدم بحذر حتى لاصـق السيارة الامامية ، فمد راسه من النافذة الصغيرة واخذ يتميز الجالس الى جانب السائق .. ولما عرفه ارخى كلماته باستغراب :

ـ انـت ؟!.
ـ بشحمي ولحمي ..
ـ الى اين ؟.
ـ الى المواقع الامامية .
ـ تبديـل ؟.
ـ كلا ، تموين .
ـ يا ملازم هواش .. كانك تعبر حقلا للالغام .
بغت الملازم وسأل :
ـ ماذا تقصد ؟.
ـ ممنـوع .
ـ لماذا ، طالما الحال هكذا دائما ؟.
ـ لاننا نسمع همسا لا يعجبنا .
ضحك الملازم ولوح برأسه واضاف :
ـ الهمس لا يعنيني .
ـ ولكنه يعنينا .. فلا تكن طلقة في مدفع .
ـ نبرتك كنقطة في آخر الكلام ؟!.
ـ اختصر ، اذن !.
ـ ما جدوى الجدل ، ونحن فريقان على ملعب واحد ؟.
ـ بل اثنان ، وكل منا يقف على قطب من الارض .
ـ لدينا اوامر . والرجوع يعني العصيان .
ـ والتقدم يعني الموت . فاختر اهون الشرين ؟.

فتح الملازم كفيه معبرا عن دهشته ، ثم حول احداهما مشيرا الى نفسـه :

ـ عيب !. اخوك !.
تنهد سفيان واجاب :
ـ كذلك كان قابيل !.
ـ لا ضغائن بيننا !.
ـ بيني وبينك كل الخير .. ولكني ارى خلف ظهرك سيف ليارتس.
ـ دعني اكلم المسؤول ؟.
ـ انا في الحراسة .
ـ لم انت عنيد ؟.
ـ كثرة القرص تورم الجلد . عد من حيث اتيت .
ـ لنتفاهـم ؟.
ـ على حساب من ؟.

وتراجع الى الوراء بينما خيم سكون ينبض بالاضطراب بعد ان وصل الحوار بينهما الى نقطة النهاية . سفيان ينتظر . والملازم هواش غارق في الحيرة ويفكر . الى ان اخترق الصمت وقع خطوات ونحنحة، ثم صوت الملازم احمد يسبق خطواته :

ـ ما الذي يحدث ؟
رد سفيان :
ـ قافلة تموين ، والملازم هواش .
واستدار نصف استدارة فتقدم الملازم احمد ووجه حديثه الـى الملازم هواش :
ـ ما هو نوع المؤونة ؟.
ـ « نواشف » ، وعتاد .
همهم الملازم احمد وسأل بنبرة لاذعة :
ـ هل ، ثمة ، معركة ؟.
فرد الملازم هواش :
ـ لكانك ترى فيّ صاحب سلطان وفي يدي الحل والربط !.

اطرق الملازم احمد وراح يستعرض الموقف بينه وبين نفسه فانهالت افكار كثيرة وعجت المخيلة بشتى التصورات والهواجس . وكلما حاول ان يتجاوز مشاعره وشكوكه وقفت كلمة « نواشف وعتاد » بين عينيـه فيتراجع . اخيرا ، هز رأسه واطلق تنهدة طويلة ثم التفت الى سفيان وقـال :

ـ دعه يمر .

* * *

قال الملازم محاولا ان يبرر موقفه بعد ان ابتعدت القافلة :
ـ جاءت الاوامر من فوق .
ـ اوامـر ؟.
ـ اجـل .
ـ لمـاذا ؟.
ـ الدليل غير قائم .
ـ والنوايـا ؟.
ـ افهمها انا وانت .
ـ والهمس ؟.
ـ لا يكفي .
ـ كانك بصقت في وجهي !.
ـ واشعر كاني حولت المسدس عن رأسه الى راسي .

ـ ٥ ـ

ادار السائق محرك الشاحنة الصغيرة وانطلق باقصى سرعـة تحت ثقل الصناديق المحملة محاولا تجنب الانفجارات والقذائف المتساقطة من كل صوب هنا وهناك . شيعه سفيـان بنظراته وعاد الى المستودع فارتدى سترته وتناول سلاحه عن احد الصناديق وحقيبة جلدية علقهـا في كتفه . كان كئيبا للغاية . واول مـا تذكر ، فور وقـوع القتال، ذلك الحوار الذي دار بالامس بينه وبيـن الملازم احمد حول حادثـة الملازم هواش وعبوره لتمويـن جيشه الرابط خلفهم .. وادرك فداحة الخطأ الذي وقع فيه هـو والملازم احمد و « الاوامر » واحس كانـه مسؤول عن قتل نفسه . انتحار لا يمكن تبريره !. هكذا قـال ، ولف كوفيته واستدار الى الخلف . وما ان هم بمغادرة المكان حتى صر الباب ودخل الملازم احمد مسرعـا وعلى وجهه علائم الاستغراب والقلق :

ـ صباح حافل بالمفاجآت !. ماذا تفعل في مكان خطـر وقابـل للاشتعـال ؟ .

تردد سفيـان وارسل نظرة بطيئة من الملامة اكثر مما تحمل مـن التساؤل وكتم غيظـا كـاد ينطلق من صدره :

ـ الخطر وارد حتى في حضن امراة. ملانا الشاحنة بالذخائـر لنرد الجحيم المتساقط فوق رؤوسنا .
ـ عبرت طائرات العدو من الغرب ،وعلى ارتفاع شاهق ، نحـو مواقعنـا الشرقيـة .

هز سفيان راسه ورسم على شفتيه اشارة عجز ولا مبالاة :

ـ باذناب بيضاء اذن ، وزمجرة كريح البطن ؟!. هو ، كمـا ترى، لقـاء العدويـن !.
ـ لنخرج مـن هنـا ؟ .
ـ لنخرج . كان الحديث بالامس اكثر طراوة عندمـا اقتصر على التخميـن والاوامر الاتيـة مـن فوق والدليل غير القائم !.

تنهد الملازم وقد احس بحدة الكلمـات :

ـ كانك تعاتبني ؟. ليس الامر بيدي . حتى الاوامر تتم عن حدس بمـا حدث . ولكن الوضع دقيق بحيث لا يجب افساح المجال للمبررات.
ـ اجراء وقائي بحت ! .
ـ تماما . والقرارات الموضوعة سلفا لا يلغيها منع الملازم هواش.
ـ ولكنه يقصر عمرهـا .
ـ في موقف كهذا ، رد الصفقـة افضل من المبادرة بها .
ـ بعد فوات الاوان ؟. لا . لا.

ومشى صوب الباب . الا ان الملازم اوقفه وبسط كفه على كتفه. تبادلا النظرات المشحونة بالحوار الصامت ثم خرجا ، فانطلق سفيان وحيدا ..

دوى انفجار عنيف على بعد امتار منه فارتج المكان تحت قدميه. قفز في الهواء وسقط على وجهه . بعد ثوان ، رفع رأسه وتطلع الى الوراء فرأى الارض تتطاير غبارا فوقه . مسح طعم التراب العالق في فمه بظاهر كفه وراح يزحف على بطنه حتى وصل الى احدى الحفر . امتدت ذراع وساعدته على النزول . عدل سلاحه الى الامام وانبطح على جنبه . نفخ بغيظ وتلفت حوله فوجد يوسف ورجلا اخر معه . خلّص الحقيبة من كتفه وفتحها وتركها على يمينه . قال هو منهمك بما يدور حوله :

ـ أنت هنا ؟.

أجاب يوسف :

ـ رأيتك تقفز يا ابن فرناس !.

التفت سفيان بعد ان كتم سخرية طارئة :

ـ بلا جناحين ؟!. أهذا وقتك ؟.. أراهن على انك تبول تحتك.

فلوح يوسف برأسه :

ـ السخرية لا تتغير في الحالتين . في الحياة او في مواجهة الموت . انت أدرى . وفدماي ، هاهما ، تشهدان . ولا زلت احمل لك الامانة .

تساءل سفيان :

ـ مدفعية ثقيلة ذات مدى بعيد؟!.

ـ كانت تباشيرها طائرات مذنبة من الجانب الاخر .

ـ لاول مرة تلتقي الضفتان !.

ـ برا وجوا ..

ـ كأننا نواجه حقدا عالميا !.

ـ يا للبشرى !. هذه ، اذن ، مرحلة ما قبل الصفاء .

ـ اي صفاء ذلك ايها المعتوه؟!.

ـ نحن على بعد خطوات . وبقدر ما يحقدون الان ، سيحبون فيما بعد .

لنى الرجل الذي بجانبه على الكلام وهو يدير رأسه :

ـ حديث عن يقين .. لا يحترمك الا الذي يعرف انك تستطيع ان تكسر ذراعه اذا ما رفعها في وجهك .

وعاد الى وضعه السابق .

تململ سفيان ورفع صدره لكي يغير موقعه فشعر بالعجز وامتد وخز شديد من اصابع القدم حتى الورك . حاول مرة ثانية لكنه وقع على صدره . ازاح الحقيبة قليلا واطرق مخذولا ثم قال مخاطبا رفيقيه :

ـ اعتقد انني مصاب .

نهض الرجلان فأخرجاه من الحفرة وقلباه على ظهره . حرك يوسف الساقين واخذ يفحصهما فأن سفيان من الالم وانقبضت ملامح وجهه . همهم يوسف ببطء فأشار له سفيان باصبعيه :

ـ اعطني سيجارة ؟ .

وأراح رأسه على الارض بينما اخرج يوسف العلبة من جيبه وطلب من رفيقه ان يحضر السيارة . انطلق الرجل ، فانهمك هو باللفافة . وبعد ان اشعلها ومدها راح يلف واحدة له :

ـ جرح في بطن الفخذ .بماذا تحس ؟.

غالب سفيان ضحكة مكتومة :

ـ بموسيقى تعزف في اذني !. بماذا تحس المصاب ؟!.

ـ لست ادري !.

ـ ستموت وأنت تضحك .

ـ ميتة مرحة ، أليس كذلك ؟. بماذا تحس ؟.

ـ بوهن ، وثقل ، ونعاس يدغدغ العينين .

اشعل يوسف السيجارة وقال مناكفا :

ـ صدقني رومانسي مخلق !. قص عليّ الحكاية ؟.

رمقه سفيان بنظرة طويلة ثم ما لبثت النظرة ان انحسرت تدريجيا، وهز رأسه مستسلما :

ـ نخمة من افطار دسم .

ـ أو ؟ ..

ـ حفلة سكر طارئة .

ـ او ؟ ..

ـ صبية ظهر فجأة في نهاية رحلة ليلية .

أخذ يوسف نفسا من سيجارته ببرود ، واردف :

ـ اكمل يا برجوازي الخيال .

ـ اشعر بارتخاء . يا لها من غفوة في غير وقتها !.

واسبل جفنيه ثم لوى عنقه فبدا وجهه شاحبا تعلوه حبيبات لامعة من العرق . تمتم بصوت مخنوق :

ـ أو .. أو ماذا ؟.

اجاب يوسف وقد اعتراه الوجوم:

ـ او شظية تأتيك من داخل البيت !.

وعندما وصلت السيارة ، نزل رجلان وفتحا صندوقها الخلفي. اخرجا محفة كاكية اللون وبسطاها على الارض . عاونهما يوسف فمددوه فوقها ونقلوه الى الداخل .

قال يوسف وهو يربت على صدر سفيان :

ـ لم تكن القفزة ، اذن ،بهلوانية ؟!

وقفل الى الوراء . وقبل ان يغادر السيارة سمع سفيان يهمس مناديا :

ـ يوسف ؟.

ـ نعم ...

ـ لست ابن فرناس يا ابن زكية .

هز يوسف رأسه واغلق الباب والحزن يعصر قلبه .

* * *

ارتفعت الشمس حتى بلغت ضحاها . الغبار سحب تتجدد في كل لحظة . السيارات تشحن بالصناديق وتتجول من مكان الى اخر . السكون تمزق من اول النهار والدوي سلسلة لا تنقطع . الرجال يتمركزون في خنادقهم وقد طمرتهم الاتربة المتطايرة . لحظة في اثر لحظة والقذائف الصغيرة ترد على الكبيرة والترقب هاجس لا ينتهي. هذه ارض ، وثمة في المقابل اخرى ، يربطهما شريط رقراق واحد. توأمان يتقاسمان جرعة ماء . انها ساعة قابيل وهابيل ..

أطل الرجل برأسه ورفع المنظار الى عينيه . القى نظرة بعيدة وجال يمنة ويسرى فشاهد الارض والتلال والاشجار والطرقات ... وشاهد رجالا بالمئات وعربات تتقدم . صفر باندهاش صفرة طويلة وارخى المنظار على صدره وبقي محدقا . وضع كفيه على حافة الخندق، وقفز الى فوق . اخذ بندقيته واستدار صوب موقع القيادة واطلق ساقيه للريح . تجنب القصف وزخات الرصاص بجري لولبي . وعندما وصل اختل توازنه فاصطدم بمدخل القبو . عدل وضعه ودخل فرأى القائد يتفحص المواقع على الخريطة وبجانبه رجلان . رفع القائد عينيه وجمد نظرة هادئة كمن يتوقع امرا . هتف الرجل :

ـ رجال بالمئات وعربات تتقدم.

اومأ القائد بجفنيه ورسم علامة الشكر على شفتيه :

ـ رأيناهم .

ـ للعلم ، سيدي .

ورجع سالكا نفس السبيل ، بينما عاد القائد الى الخريطة يدقق

ويفكر . قال احد الرجلين :
ـ هم بالمئات ونحن بالعشرات !.
وقال الرجل الاخر :
ـ لا سبيل الا الانتشار .
فنهض القائد ولف الخريطة ووضعها تحت ابطه ، واردف :
ـ اجزم ان لحظة الاقتحام تدنو .
وخرج بعد ان اومأ للرجلين بأن يتبعاه .

* * *

كان سفيان ممددا على ظهره فوق فراش محشو بالقش القي على الارض اليابسة بلا وسائد ، وقد قصت احدى ساقي بنطلونه فبدت فخذه محكمة الرباط وملفوفة لفا عريضا وسميكا . وعلى الرغم من ذلك ، كان يشاهد كلما نظر الى موقع الجرح بقعة من الدم تزداد اتساعا على سطح اللفافة . وعندما يقلب النظر في من حوله، يرى الرفاق ممددين مثله في حالات صعبة وعددهم يتكاثر مع مرور الوقت .. فينفخ بغل لا يطاق .

وبعد ان حقن بالدواء ، اخذت آلامه تزول تدريجيا والنعاس يزحف الى مقلتيه ويثقل همنه . شعر انه معلق بين الصحو والنوم والافكار تتحرك ببطء في رأسه . ومع ذلك ، بقي يسمع انين رفاقه ودوي المدافع يخف شيئا فشيئا ، بينما تصاعدت زخات البنادق في حمى جلبة وفوضى عنيفتين .

فكر بامه زينب ، التي تلج مخيلته دائما بحدة سنين البؤس تحمل نصف العالم على كل كتف ، تنوء بالهموم وقد وعدت نفسها به . وفكر بمنيرة التي تخطر بخفة الطيف ، تبسط كفين مخضرتين وتعد بالوجود الدائم . ثم فكر بنفسه : كيف جرى مسلسل الحياة. دنتا المجهولة . موت مصطفى العكبراوي . خروج زينب .طفولته وعناء امه .المخيم . طحين « الوكالة » وسمن « الكيكوز » وثياب «البالات» المدرسة واللباس المرقوع بكل لون والحفاء صيفا شتاء . اللحظات الاثقل من الارض والسماء . حمل البندقية والعزة المستردة . الجمر المتقد في رأسه . حصار الحاقدين . الدوي العنيف وكيف قفز وسقط على وجهه وزحف على بطنه .رفاقه الذين حوله والانين المكتوم. دنتا ، زينب ، منيرة . غمغم وهو مطبق الجفنين :
ـ سفيان مصطفى حسن العكبراوي .

ـ ٦ ـ

انتشر الارتباك والفوضى بين اهالي المدينة بعدما دارت مكبرات الصوت المحمولة على السيارات تعلن النبأ بنبرات حادة وحزينة وطلب من الجميع التوجه الى « الجامع الكبير » لمشاهدة العجائب.

امتلأت الشوارع بالناس . جموع تتلاطم كالموج . زئير كيوم القيامة . النساء يولولن ويطلقن الاصوات . الصغار يتراكضون ببراءة. الرجال يهدرون ويتساءلون . الاسواق مقفلة والسيارات توقفت . الغضب مشرع بالسنة من لهب . الارض مادت من زلزال . السماء سقطت في الوجوم . النهار اسود وجهه .القلوب تعتصر دماءها . النبض يركض كزخات الرصاص . مشاعر هائجة كزوابع دائمة . لا وجود الا لكرة ارضية تهوي في فراغ .

ـ معقول ؟ !.
سأل رجل رفيقه ، فيما كانا يهرولان معا ثم اضاف :
ـ جثث مقطعة ورؤوس مشروخة ؟!.
اجاب رفيقه :
ـ السمع شيء ، والرؤية شيء اخر .
صفق الرجل الاول كفا بكف ،وهتف :
ـ وحوش ؟!. ماذا حدث ؟.
ـ دخلوا عليهم بالبلطات .
ـ بالبلطات ؟ !.
واطلق ولولة تنم عن التوجع .
ـ كيف ؟.
ـ قطعوا السنتهم وخصيهم وقلعوا عيونهم .

كان اليوم « جمعة » وقد حان وقت الصلاة . وكانت الجماهير التي وصلت الى المسجد تتدافع من الباب الواسع حتى امتلأت القاعة والباحة الخارجية وبقي الشارع مكتظا . وتحت وطأة الحرارة ازداد الهدير وراح الكثيرون يجففون عرقهم بالمناديل .

اما قاعة المسجد فقد بدت كخلية نحل لكثرة ما انحشر بداخلها من اناس كانوا يطلقون احتجاجات خافتة . وكانت جثث الضحايا ملقاة فوق اكياس كبيرة من الخيش ملطخة بدماء جافة ، صفت فوق الحصائر في خطين متقدمين على طول القاعة . وكان ذوو بعض الضحايا من النساء يتجمعن في مكان واحد ويذرفن الدموع بصمت .

خرج الملازم احمد من الباحة الى الشارع بصعوبة . تلفت يمينا ويسارا فوجد يوسف مقرفصا قرب الجدار في مساحة من الظل كادت تغطيه ، ومطأطئا رأسه بكآبة . تقدم وسأله :
ـ وزينب العكبراوي ؟.
اجاب يوسف دون ان يرفع رأسه :
ـ بعثنا اليها بالخبر .
فقرفص الملازم بجانبه وقال :
ـ سيحلق في سمائها غراب البين .. ما اصعبها من لحظة !.
ـ اصعب لحظات حياتها .
ـ بعد ان وقع الخطب !.
ـ هي امه وهو ولدها على اية حال . بل هو اكثر من ذلك . كان بالنسبة لها الافق المضيء الذي تركض نحوه باستمرار وهو موجود في رأسها .
وامسك باصبعيه عودا من القش وراح يخربش به على الارض بطريقة عفوية :
ـ اما بالنسبة لي ، فهو رفيق العمر والرجل الذي لتصرفاته وجوهره وجه واحد . لا تظهر الحركة على ملامحه اذا لم تتحرك من الداخل اولا ..
وغص بالكلمات فسكت لهنيهة وتابع :
ـ بالامس كان جريحا ويناكفني ..
تساءل الملازم :
ـ أتندبه ؟! .

ـ كلا . ولكني اشعر به يجلس في رأسي . فمنذ ظهر امس وهو يدق المسامير في ذهني حتى صار كل ما كان يردده مقنعا . لماذا الزواج ؟. لماذا التكاثر الذي يزيد اليتم ؟. لماذا « القشة على البيدر، فهي تزيده قشة » ؟. لماذا الظلم الفائض عندما يصبح بالامكان تلافيه؟. ترك وراءه زوجة وربما طفلا في احشائها . ماذا يحل بمنيرة الان؟. امرأة عاشت حلاوة الزفاف ليلة واحدة وعليها ان تقاسي بقية العمر من اجلها . اصبحت ارملة فلا هي في اول الطريق ، ولا هي في آخره ، ولا هي تتحرك . ماذا جنت من وراء ذلك ؟. هل، ثمة ،غير الشقاء ؟ !.

ـ الشقاء ؟. لم يعد يشكل كارثة . وسفيان لا يختلف عن الاخرين الممددين فوق اكياس الخيش . وموته بالنسبة لكلينا ،فقط، بمثابة الجرح الصغير الذي وخزته شوكة في جسد مثخن . وسواء جلس هو في رأسك او امتطيت انت افكاره فان الحالة الناجمة الان هي وليدة القلق .
لوى يوسف رأسه باستغراب :
ـ ماذا تعني ؟.

ـ جمجمتك محشوة بالدخان .
ـ هوس ؟.
وعاد يخربش على الارض، فاجاب الملازم :
ـ كلا . ولكن جرعة الاسى وقفت في حلقك .
ـ قد يكون الاسى مصير بيتي، لان مصيري مجهول الاقامة . هو سبقني الى الزواج وسبقني الى الموت .
بدأت افكر بسعادة .
ـ هذا هو ، اذن ، القصد ؟.
ـ تماما .
ـ اسمع ؟. ان من يعزم على قتل الافعى يجب ان يحسب حساب اللدغة .
توقف يوسف ولوى راسه مرة اخرى :
ـ في الحسبان يا سيدي . ولكني اتساءل : لماذا الاسى يجر وراءه اسى اخر ؟.
وسكت مستغرقا في تساؤلاته ، بينما بقي الملازم يتأمل ملامحه. قال يوسف فجاة :
ـ استاذنك بساعة ؟.
ـ لماذا ؟ .
ـ سأذهب الى المخيم .
ـ الان ؟ !.
ـ يجب ان اقنع سعدية بعدم الانتظار .

تعالى صراخ من بعيد وازدادت الجلبة في الشارع . وقف الملازم احمد وتبعه يوسف الذي اخذ يمعن النظر بالمشهد . رأى زينب تندفع بقوة وتلوح بذراعيها محاولة ان تفتح لها طريقا بين الصفوف المتلاطمة . قال للملازم :
ـ زينب العكباوي !.
واخترق الحشد وراح يفرق الناس حتى اقترب منها فصاح مناديا:
ـ يا عمة زينب ؟.

التفتت زينب وبقيت تجري والحشرجات المتهدجة تنطلق من حنجرتها . كانت كاشفة الرأس ، مشعثة الشعر ، محمرة العينين، وفي قبضتها منديل اسود . وكان المتجمهرون الذين تمر بهم ينظرون اليها بذهول ويطلقون عبارات تائهة . دخلت الباحة ويوسف وراءها. وعندما وصلت باب القاعة حاول احد الرجال منعها فدفعته في صدره ..

أمسك بها يوسف ليهدىء من هياجها فسحبت يدها بعصبية ودخلت ، الا انه سبقها وظل يقودها الى ان اوصلها ثم اشار باصبعه الى جثة سفيان ..

وقفت ذاهلة من هول الفاجعة . كانت الجثة ملقاة على الارض بين الجثث الاخرى ، مضمخة بالدماء ، مشجوجة الرأس ، وقد اقتلعت العينان منها وملأتها القروح. بقيت تحدق لهنيهة ثم وضعت قبضتيها على صدرها وقامت بحركة هستيرية فانشق الثوب عن صدرها . وضعت كفها فوق فمها واطلقت زغرودة طويلة ثم جثمت تتلمس قدمي ولدها . انطلق الضجيج من القاعة وعلت احتجاجات كثيرة وصاحت النسوة بالبكاء ، فشدها يوسف من ذراعها واخرجها الى الشارع بعد ان لملم ثوبها على صدرها ووضع يديها فوقه :

ـ لا ، يا عمة !.
نظرت اليه بعينين زائغتين وشفتاها ترتجفان :
ـ لا ؟. حسبنا الموت في دنا !.

ـ كان بينه وبين دنا مسافة الرؤية ، وكان يمشي فوق رقعة ملغومة واخف من خطواته ، فتظل دنا على نفس المسافة .
ـ ومات ؟! .
ـ مات ..
ـ كيف ، يا ولدي ؟.
ـ كان جريحا ..
هتفت زينب :
ـ متى ؟ .
ـ صباح امس ، ووضعناه مع الجرحى .
ـ آ ؟ .
ـ وقوله يقرع اذني !
ـ ماذا قال ؟.
ـ كلاما يلوي الاحشاء جعلني بحجم حبة العدس !. ناكفته لما قفز وسقط فلفظ سخريته وهو جريح .
ـ كذلك شانه مع اهل مأرب .!؟
ـ قصفونا من اول النهار حتى الضحى ثم اقتحموا المكان فانتشرنا .
ـ آ ؟ .
ـ بقي الجرحى ..

وصمت .. فزمت زينب حاجبيها ولوت شفتها السفلى باصبعيها :
ـ اكمل ؟.
ـ فمشوا بهم على هذا النحو .
ـ كلهم جرحى ؟.

هز راسه بالايجاب فاطلقت صرخة جارحة وراحت تهذي وتصفق جنبيها بكفيها بعد ان انكشف صدرها :
ـ رؤوس مشروخة ، وبلا عيون !.

واخذت تدور حول نفسها وترتعش .تدفق الناس من كل صوب واحاطوا بها وعلا هديرهم . لملمت ثوبها بقبضتها وصاحت بهم بعد ان همت بالانطلاق :
ـ ابتعدوا ؟.
امسك رجل بذراعها ليهدىء من غضبها :
ـ مهلا يا امراة . الى أين ؟ .
قالت بلا تردد :
ـ سأرى ان كانت منيرة حبلى .. وسأصرخ بالصوت تلو الصوت لكي تحبل النساء وتتزوج الصبايا ..
ـ وولدك ؟ .

تطلعت زينب في وجه الرجل مليا ثم خلصت ذراعها من يده. حولت راسها فتصفحت وجوه الا خرين واجابت والدموع تملأ عينيها:
ـ ساعود قبل ان تدفنوه .

* * *

تقدم الملازم احمد ونقر على كتف يوسف ثم سحبه من بين الناس:
ـ اذهب ، ولا تتاخر !.
أطرق يوسف ، وبقي يفكر للحظة ،قال :
ـ غيرت رأيي .
فتح الملازم حاجبيه :
ـ كيف ؟! .
اجاب يوسف بهدوء كئيب :
ـ لقد كنت في دوامة .